

عوامل تطور اللغة العربية وانتشارها

الأستاذ عبد الرحمن الكبيالي

وتقرب بالحروف التي ابتدعوها، والابجدية التي وضعوها فكانت لكل منها لهجته التي تختلف عن غيره باللفظ، وبعض المعاني حسب المحيط الذي نشأ فيه وحسب التطور الاجتماعي، والحضاري، الذي وصل اليه.

العرب قبل الاسلام :

قال المؤرخ جرجي زيدان في كتابه « العرب قبل الاسلام » (ص 32) (اصطلح المؤرخون في هذا المعمران يسموا الشعوب التي تتفاهم بالعربية والسريانية والعيشية والتي كانت تتفاهم بالاشورية والفنيقية، والآرامية شعوبا (سامية) نسبة الى (سام) ابن نوح لان هذه الامم جاء في التوراة انها من نسله. وسموا لغاتهم (اللغات السامية). ولا خلاف بان هذه اللغات السامية متشابهة في الفاظها وتركيبها، وانها من اصل واحد يسمونه (اللغة السامية) كما تتشابه فروع اللغة اللاتينية، او فروع اللغة السنسكريتية، فيقال مثلا ان اللغتين الايطالية والاسبانية اختان مهما للغة اللاتينية. وان الفارسية والاوروبية اختان مهما السنسكريتية. كما يقال ان اللغات العامة في الشام ومصر: والمغرب، والعراق، والحجاز، واليمن، والسودان اخوات، اما اللغة العربية الفصحى، فهذه الامهات لا تزال محفوظة ويمكن رد بناتها اليها.

اما ام اللغات السامية فلا وجود لها الآن، وقد زعم فلاسفة اللغة انها العبرية وظن غيرهم انها العربية،

نستطيع تاريخيا ان نقول بان اللغة العربية نشأت في الجزيرة العربية مهد اللغة السامية وبناتها. وهي اقدم تلك البنات، واقر بها الى هذه اللغة التي لم يتكلم بلهجاتها الا الساميون بعد ما خرجوا وتفرقوا خارج الجزيرة العربية في تاريخ لم يعلم مداه.

واللغة العربية، وهي فروع اللغة السامية لم تنشر خارج تلك الجزيرة الا بعد ظهور الاسلام. اذ امتد الفتح الاسلامي في سرعة لم يماثلها فتح آخر، الى بلاد سورية، والعراق، ومصر، وفارس، وليبيا، وتونس، والجزائر، والمغرب الأقصى، والسودان، والصحراء، وبلاد الاندلس، وجنوبي فرنسه، وجنوبي ايطاليا، وصقلية، ثم الى بلاد الترك، والافسان، والسند، والهند، وقافقاسيا، وسائر البلاد التي فتحها العرب ودانت بدين الاسلام، واشتركت شعوبها مع العرب الفاتحين في بناء حضارتهم وتكلمت بلفتهم وساهمت بنشر ثقافتهم وتعاليم دينهم.

اللغات السامية وما تبقى منها ؟

واللغات السامية لم يبق منها الا العربية، والعبرانية، والسريانية، والعيشية. وقد كانت البابلية، والاكادية، والآرامية، والكنعانية، والتدمرية، والسبائية، تمثل لغة الاقوام السامية الذين تفرقوا في سورية، والعراق، وفارس، وفلسطين، ولبنان، وشمال افريقيا. وكانت تكتب

وزعم غيرهم انها انبالية ، ولا تخرج اقوالهم عن حد التخمين .

وقد باد اكثرها لان حضارة الاقوام والقبائل التي كانت تتكلم بها زالت ، ولم يبق منها الا اللغة العربية ، واللغة العبرانية ، واللغة السريانية ، واللغة الحبشية .

اللغة العربية والاقوام التي تتكلم بها :

اما اللغة العربية ففي الوقت الحاضر يتكلم بها ثمانون مليوناً من النفوس يقطنون البلاد العربية : (مصر واليمن ، والجزيرة العربية السعودية ، والكويت ، وسورية ، ولبنان ، والعراق ، وبلاد الاردن ، وفلسطين ، وبلاد المغرب ، والجزائر ، وتونس ، وليبيا ، والسودان ، وحضرموت ، وعدن ، والبحرين) . وكان يشيع استعمالها والتكلم بها كلغة دين ، وادب ، وعلم ، وفن ، وطب ، وفلسفة ، وتشريع ، وتجارة ، وسياسة ، بين الامم الاسلامية التي دانت للعرب ودخل الاسلام الى قلوبهم وديارهم وانتشرت حضارته بينهم ، وبقوا تحت حكم خلفائهم وملوكهم وامرائهم اكثر من تسعة قرون ، من عصر صاحب الرسالة المحمدية وخلفائه الراشدين وزمن دولة الامويين والعباسيين ودولة الفاطميين والايوبيين في مصر وسورية ، والعراق ، وشمالى افريقيا ، ودولة الامويين في الاندلس ومن حكمها ، وحكم شمالي افريقيا من دولة الموحدين والمرابطيين وملوك بني حفص وغيرها ، ودولة الحمدانيين وبني مرداس والمالكيين السلجوقيين ، والجراكسة في بلاد الشام ومصر ، ودولة آل بويه في العراق ، ودولة خوارزمشاه ، والأتابكية ، وبني آرتق ، ثم دولة ملوك سامان فيما وراء النهر وخراسان ، ودولة ملوك آل سبكتكين ، ودولة بني طولون ، ودولة الاخشيدية في مصر ، وملوك كرمان وغزته ، الى ان انتهت الخلافة العربية وقام بالفتوحات دولة بني عثمان ، ودولة هلاكو والتتار ، وملوك فارس ، وحلت لغات هذه الدول التركية والتتارية والفارسية والاوردية في بلادهم محل اللغة العربية . واخذ كل من هذه الدول ينشر لغته في بلادها وارجائها ، ولكن بالرغم مما اصاب الامبراطورية العربية ، والبلاد الاسلامية من كوارث ومعن وانحلال فقد بقيت اللغة العربية في هذه البلاد لغة الدين والشرع والمبادئ ، والتعليم ، تقوى وتضعف حسب تطور كل دولة وكل مملكة ، وبمقدار تمسك اقوامها بالدين الاسلامي ، وتعاليمه ، وبمقدار انتشار الطم وزوال الامية من بين افرادهم ، وبمقدار وجود المدارس

الدينية ، والمؤسسات الروحية ، والجامعات العلمية ، ووجود المكاتب العامة ، والخاصة ، والمطابع ومطبوعاتها في البلاد الاسلامية وفي البلاد التي توجد فيها اقوام اسلامية كالهند ، والصين ، وبلاد غربي آسيا وبلاد السوفيات ، وتركيا ، ودول افريقيا المسلمة ، واندونيسيا ، وافغانستان ، وباكستان .

اللغة العبرية ، واللغة الحبشية ، واللغة السريانية ، وما آلت اليه كل منها :

واما العبرية فقد انحسرت في بقايا بني اسرائيل بحسب العوامل الزمنية والسياسية ، والثقافية . وانحصرت السريانية في بعض القرى والاماكن التي يقطنها بقايا الاشوريين في العراق ، وبعض قرى لبنان ، وسورية ، وايران .

وانحصرت الحبشية (الامهرية) ، والصومالية والحميرية (بسكان اثيوبيا والصومال .

وتختلف اللغات الانسانية في مبلغ انتشارها كما ذكر الدكتور علي عبد الاحد الوائلي في كتابه (علم اللغة) اختلافا كبيرا ، فمعنا ما يتاح له فرص مواتية فينتشر في مناطق واسعة من الارض ويتكلم به عدد كبير من الامم ، كما للابينية والبورتنغالية والافرنسية والالمانية في المصور الحديثة .

(ومنها ما تسد امامه المسالك فيقفى عليه ان يظل في منطقة ضيقة من الارض ولثة قليلة من الناس) .

اسباب انتشار اللغة العربية :

اما انتشار اللغة العربية فيعود الى عدة عوامل :

اولا — ان اللغة المذكورة عاشت في صراع مع لغة اخرى او لغات اخرى . وتقضي نواميس التنارع اللغوي ان يكتب لها النصر فتحل مناطق اللغة او اللغات المقهورة فينتسج بذلك انتشارها . وتدخل امم جديدة في عداد الناطقين بها ، كما حدث للغة اللاتينية في العصور القديمة وكما حدث للغة العربية في العصور الاسلامية اذ تغلبت على كثير من اللغات السامية الاخرى وعلى اللغات القبطية والبربرية حتى بلغ عدد الناطقين بها (80) مليوناً من النفوس ينتمون الى خمس عشرة دولة بعد ان كانوا لا يتجاوزون العشرة الاف يقطنون منطقة في الجنوب الغربي والشمالي من جزيرة العرب .

والملاحيه والمعاهد ، والمكاتب ، ودور الايتام بسرعه
حيرت المؤرخين والباحثين .

وفى ذلك يقول الفيلسوف اوزفالد شينغلر
الالمانى فى كتابه عن سقوط الحضارة الغربية :

« ان الحضارة العربية كانت تؤمن بثلاثة ابعاد
(الطول والعرض والعمق) لكن الفرق بين العمق
الفادستى (الفادستية مذهب منسوب الى فادست
الالمانى الطبيب العالم الاسطوري الذى باع روحه
للسيطان وعليها بنى « غوته » روايته فادست ،
والعمق الغربى ان الاول يتسامى ليخلق فى الفراغ
بينما العمق العربى يتحدّر ليفوس فى الامايق لباطن
الارض ، وهذا وحده كاف ليفسر لنا سر الحميا
الجبارة التى دفعت بالحضارة العربية عندما انطلقت
اخيرا من قيودها واغلاها لتلتقي بظلالها على جميع
البلدان التى تنتمي اليها باطنيا منذ قرون وقرون
وقرون سبقت انطلاقتها الاولى .

ان هذه الحميا لدلالة على ان النفس العربية هي
فى مجلة دائمة من امرها . فهي تلاحظ امراض
شيخوختها حتى بلوغ شبابها . وانه والحق يقال
لا مثيل هنالك فى التاريخ لتحرر الجنس الونسي
وانطلاقه كما حدث للجنس العربى بتحرره السريع ،
وانطلاقه الممجز ، فلقد فتحت سوريا لا بل حررت
عام 634 م . وسقطت دمشق عام 637 م واستعبدت
مصر عام 645 م . وبلغ العرب الهند فى ذات
التاريخ . وفى عام 647 م عادت قرطاجنة . وفى عام
676 م استعبدت سمرقند . وفى عام 710 م سقطت
اسبانيا . وفى عام 734 م اخذ العرب يقرعون ابواب
باريس .

لقد ضغطت فى هذه السنوات القلائل جميع
المواطف العربية المدخرة ، والامال المؤجلة ، والاعمال
المحفوظة ، هذه التى يكفى لتملا قرونا وقرونا من
التاريخ) .

ثم يقول الفيلسوف المنصف (فالصليبيون امام
القدس ، وسلالة هوهنشتاوغن فى صقلية ، والهانس
فى البلطيق ، والفرسان التيوتينيون فى الشرق
السلافى والاسبان فى امريكا ، والبرتغاليون فى الهند
الشرقية ، وامبراطورية شارل الخامس التى لم تغرب
الشمس عنها ، وبداية العصر الاستعماري الانكليزي
تحت رعاية كرومويل هذه الانطلاقات كلها تعادل فى
زخمها انطلاقة واحدة حملت العرب الى اسبانيا
وفرنسا وجنوبي ايطاليا والى الهند وباكستان) .

ـ الاسباب الاخرى لانتشار اللغة العربية :

ومن الاسباب الفعالة التى ساعدت على انتشار
اللغة العربية خارج البلاد العربية يرجع ولا شك الى
الاسلام ذاته ، فى عدالته وصدق معاملاته ، وقضائه ،
مما جلب قلوب الرهايا وحجب الى النفوس تملها ،
والايمان بشريعتها ، والطامة لقرءانها .

ثم لاطلاق الاسلام الحرية فى العقيدة ، والفكر
والعمل وفقا للقاعدة الاساسية الاسلامية التى اعلنها
(الخليفة الثانى عمر) عندما سأل عامله (متى استعبدتم
الناس ، وقد ولدتمهم امهاتهم احرارا ؟) .

ثم للمساواة التى شرعها الاسلام بين افراد
الناس على اختلاف طبقاتهم ، وملهم والوانهم ،
ونحلهم ، اذ جعل الجميع يتساوون امام الحق
والمسؤولية والشريعة ، اذ تقول الآية الكريمة (ان
اكرمكم عند الله اتقاكم) وينص الحديث الشريف
قالا (ليس لعربي على اعجمي من فضل الا بالتقوى) .
ثم يقول الرسول الاعظم (الخلق كلهم ميسال الله
واقربهم اليه انفعهم لعياله) ، وفوق كل ذلك امر
الاسلام بالعدل بين جميع الناس فقال عز من قائل
(ان الله يامركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها واذا
حكمت بين الناس ان تحكموا بالعدل) فهذه المبادئ
التي قام عليها الاسلام وغيرها انفتحت القلوب المغلقة ،
واسهم الناس ، واطاعت الشعوب ، وتعلمت افرادها
اللغة العربية لغة القرآن والحديث .

فالشعوب والامم مهما تكن اجناسها ، ونحلها ،
والوانها ، وانوامها ، لا تقبل على طامة الحاكمين ،
وتتعلم لفتهم عن رغبة وطوامة ، وتخضع لاحكامهم
بقبول ورعى ولا تعيش فى ظلم بناءة ، عاملة ،
ومنتجة ، وهادئة ، الا بفعل العدل ، والمساواة
والرعاية ، والحرية والشعور بالحماية والتعاون ،
حسب منطوق الحديث الشريف (كلكم راع وكل راع
مسؤول عن رعيته) اصف الى هذه الفضائل والمبادئ
السامية ، روح النفس العربية فى الامة ذات القومية
المتفتحة ، غير المتعصبة ، ولا المحتكرة ، قومية
تنظمها الاخلاق ، الاخلاق الحميدة ، والحميدة فقط
على وجه التخصيص ، الاخلاق التى تغلب المصلحة
العامّة على المصلحة الخاصة ، والوجدان على العقل ،
والعدل على الظلم ، والروية على الاندفاع ، والعفو
على السفك ، اخلاق تؤمن بان الغاية الشريفة لا يجوز
ان يسلك اليها بوسائل غير شريفة ، وهذا ما جعل
بانتشار الاسلام ولفته وساعد على تعرب الاقوام ،

والادب ، والقراء ، والفقهاء ، ورجال الحديث والمة المذاهب ، والمؤرخون ، واصحاب التفاسير ، والاطباء ، والفلاسفة ، والقضاة ، والمهندسون ، والرياضيون ، والفلكيون ، وسواهم من صنوف العلماء والادباء والمتخصصون وكلهم تنقف بالثقافة العربية وباللغة العربية ، لغة الدين والحكم والتأليف ولغة الدولة ، ولغة العلم والفن والادب ، والفنساء والموسيقى ، تجمعهم لغة القراء والحديث واللغة الفصحى وان كانوا من اقوام مختلفة وطبقات متباينة واقليم قريبة او نائية ، وان كانوا في لهجاتهم متفرقين ، فلعراقي لهجته وللشامي لهجته وللمصري لهجته وللمغربي لهجته وللخراساني لهجته ، هذا لهجات العواصم والمدن ، والارياف ، ولهجات اهل اليمن والحرف ، ولكن الخمسمائة مليون من العالم الاسلامي لم تخرج لهجتهم عن اللغة الفصحى التي حفظها القرآن والحديث فيما يؤلفون وينشرون ويتعلمون ويدرسون ويتراسلون .

وقد ساعد على انتشار اللغة فيما عدا ذلك في القرون التي تلت ظهور الاسلام وفي عصرنا الحديث ازدهار حركة التأليف والنشر فقد ملئت الدنيا بالؤلغات المخطوطة في كل علم ولن وادب .

وكان من الحزن ، والمؤسف ، ومن الخسارة التي لم تموض ، ان اصيب العالم الاسلامي في الشرق والغرب بغزوات المغول ووحشيتهم وبغزوات التتار ومظالمهم والصليبيين وحروبهم ، والاسبان وبربريتهم ومحاكمتهم في بغداد ودمشق والقاهرة والانديس ، فارتكب الجميع قتل المغوليين ، ونهب اموالهم وقصورهم وتهجيرهم بعدما خربوا القلاع ، والمساجد ، وائلقوا معظم المكاتب وما فيها من مخطوطات ، ونفائس واغاموا على العالم ثروة لا مثيل لها من العلم ، والحضارة . وقد شادت الاقدار ان يكون نصيب بغداد من الضياع فوق ما يتصور فقد بقي ماء دجلة مشرقة ايام اسود من كثرة ما التي في جوفه من المخطوطات لتمر من فوقها الجنود .

- ان القراء والحديث والاسلام في انتشار اللغة العربية ونموها ، وتطورها ، وارتقائها :

وفي هذا الموضوع يقول صاحب كتاب فقه اللغة الاستاذ الجليل الدكتور علي عبد الواحد ، ما يلي : (ان القراء العظيم مفخرة العرب في لغتهم اذ لم يتح لامة من الامم كتاب مثله (لا ديني ولا دنيوي) من حيث

اغف اليه اهتمام الراعي برميته ومسؤوليته تجاهها ، وصلاح اللغة العربية للنمو والتوسع والتطور . واخيرا تشجيع ذوي الامر من ملوك وخلفاء وامراء ووزراء لرجال العلم والعلماء والتعليم واغداق الاموال الوفيرة والمكافاة السخية لخدمتهم العلم ونشره والتأليف في مختلف انواحه ولن درس وخدم اللغة والشريعة والادب والفن .

- العوامل الاخرى التي ساعدت على انتشار اللغة العربية :

ومن الاسباب التي ساعدت على انتشار اللغة العربية ، مقوماتها الطبيعية في الاوطان الاصطية نفسها ، فياخذ افرادها ، وطوائفها في الريادة المطردة ، وتنشط حركة الاقتصاد والعمران في بلادها ، فتكثر فيها المدن والقرى ، والداكر ، والعواصم ، وتعدد المناطق ، والاقاليم ، فيتسع لذلك نطاق انتشارها ، ومدى ارتقائها ، كما حدث لكثير من الدول كالانكليز ، والافرنسيين ، واليابان ، والاسبان ، والبرتغال في بلادهم والبلاد التي احتلوها ، واستعمروها والتي هاجروا اليها .

ثم شغف العرب وطماعهم للحصول على المعرفة والعلم اينما كان ومن حيث كان والاخذ بهما من مواردهما ، والعمل على نشرهما ، وقد سار الاقدمون من العرب وتبعهم المتأخرون على هذه السنة ، وشاركهم في ذلك اهالي البلاد التي دانت لهم فكثر من بينهم حملة العلم ، والنبقاء ، وارباب البحر والاختصاص ، وظهر فيهم اهل الواهب والذكاء فترجموا كتب الاقدمين من هنود ومجم وسريان ويونان الى لغتهم العربية واستقدموا منهم الفلاسفة والاطباء والعلماء الى بلادهم للاستفادة منهم وللترجمة والتدريس . ونقلوا من البلاد البعيدة ذات الحضارة الكتب العلمية واتشأوا دورا للنقل والترجمة والمكاتب للدروس والمطالعة ، وبنوا المدارس والمعاهد العلمية للتعليم والتدريس ، واسسوا الجامعات في عواصم بلادهم . وبدلوا المال بسخاء لم يعرف له نظير . وتبادلوا مع انشعوب ما رزقهم الله به من علم ولغة وادب وفن وتجربة .

وبهذا الشغف والظما ، والتشجيع والسخاء والكرم - الدافع القوي - والخصلة السامية ازدهرت الحضارة العربية ، وهم الاسلام ، وانتشرت اللغة العربية ، ونبغ العلماء ، والشعراء ، ورجال اللغة

العرب من الأمم التي دانت لهم ولحضارتهم ، من علوم ، وفنون ، وصناعات ، وثقافة ، و عمران . وما اقتبسوه من لغاتهم وفنونهم ، وما ترجموه من مؤلفاتهم في مختلف الشؤون ، وأوجه الحياة . فتناولت العربية بجانب ما تناولته من قبل ، شؤون التأليف في الرياضيات والفلك والطب والطبيعة والمنطق والكيمياء والفلسفة ، والفقه ، وفنون اللغة ، والنقد الأدبي ، وتاريخ الأدب والرسائل السياسية ، وضبط أمور الدولة وتنظيم شؤون الدواوين ، والرد على المذاهب الزائفة ، ومقاومة الكفر والزندقة والإلحاد ، وصنع القصة والرواية ، والمقامات وهلم جرا .

وقد نجم من اتساع اللغة العربية وارتقائها في ناحية الأمراض اتساع وارتقاء في ناحية الأخيلة والأساليب .

ثم قويت على تجلية المعاني الدقيقة التي جلبتها العلوم السابق ذكرها واستخدمت فيها الحجج العقلية والبراهين المنطقية ، والادلة الفلسفية وادخلت فيها عناصر جديدة للخيال والتشبيه ، وتهذبت أساليبها ، وتشكلت في صور الأساليب العلمية .

ثم يقول (وأما المفردات ودلالاتها ، فكان الأثر

فيها واضحا كل الوضوح ، فقد تجرد كثير من معانيها القديمة ، وأصبحت تدل على معاني خاصة تتصل بالعبادات والشعائر ، وشؤون السياسة ، والإدارة والحرب ، ومصطلحات العلوم والفنون ، ومن ذلك الفاظ الصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج ، والخليفة ، والإمام وأمير المؤمنين ، والقاضي ، والوالي ، والعامل ، والكاتب ، والوزير ، والشرطة ، والدرك ، والوظيفة ، والقطائع ، والجريدة ، والصائفة (التي تذهب أيام الصيف) ، والشاتية (الكتبة التي تذهب أيام الشتاء) والمرتقة ، والمتطومة ، والشحنة ، والثغور ، والصارة ، ودار الصناعة ، وديوان الجند ، وديوان الرسائل ، وديوان الخاتم ، والسريسر ، والسكة والطراز ، والمقصورة ، والتعجب ، والنمت ، والتوكيد ، والتجويد ، والحد ، والتعزير ، والتكدير ، والشبهة ، والقياس ، والتعريف ، والتصرف ، والقضية ، والسالبة ، والموجبة ، والمقدمة ، والنتيجة ، والصرع ، والاستسقاء ، والدبهة ،

البلاغة والتأثير في النفوس والقلوب سواء حين يتحدث من الله الواحد الأحد ، وعن عبادته ، وعظمته ، وجلاله ، أو عن خلقه للسموات ، والأرض ، وما بينهما ، أو عن البعث والنشور ، أو حين يشرع للناس مناهج حياتهم ، ويقيمها على أسس قوية ومبادئ سامية تحقق لهم السعادة في الدارين الأولى والآخرة ، وحين يقول الله في كتابه مخاطبا الإنسان « وأبغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين » .

وبعد هذا يمكن تلخيص العوامل التي أثرت تعاليم الإسلام وكتابه المنزل على دقي اللغة العربية وانتشارها وتهذيبها وتوحيدها بما يلي :

أ - تقوية سلطان اللغة القرشية . فقد كان لجيء القرءان والحديث بلغة قريش وهما دعامة الشرع الإسلامي الذي اعتنقته قبائل العرب اعظم تأثير في توطيد هذه اللغة وتثبيت أركانها وقواعدها وتقوية سلطانها على اللسان واللهجات

ب - تهذيب اللغة العربية وتنقيحها والنهوض بها الى أرقى مستويات اللغات والآداب .

ويبدو اثر ذلك في مختلف النواحي اللغوية (في الإغراض ، والمعاني والأخيلة ، والأساليب) .

أما الإغراض : فقد اُسِّمت إما اتساع بفضل

القرءان ، والحديث ، وبانتشار الإسلام وتعاليمه في أمم ذات ثقافات مريقة ، وبما أفاده العرب ولغتهم من الاحتكاك بهذه الثقافات وقد فتح القرءان والحديث للغة العرب أبوابا كثيرة من فنون القول مولجت فيها أمور لم تكن العربية هالجتها من قبل ، وذلك كمسائل القوانين والتشريع والقصص ، والتاريخ ، والعقائد الدينية ، والجدل فيما وراء الطبيعة ، والإصلاح الاجتماعي ، والنظم السياسية ، وشؤون الأسرة ، وأصول القضاء ، ودراسة مظاهر الكون والحياة ، والفلك ، والطبيعة والنبات والحيوان وهلم جرا .

ثم يقول الأستاذ علي عبد الواحد (وقد اُضيفت الى هذه الإغراض فيما بعد أغراض كثيرة يرجع فيها الفضل الى الإسلام وانتشاره ، واتساع رقعة المملكة العربية وارتقاء مظاهر المدنية فيها . وإلى ما ورثه

ثم يقول الاستاذ (ولا شك ان هذا الحفظ اتاح للهجة قريش ان لا تنتشر في العالم الاسلامي فحسب، بل تحفظ ايضا ، وتظل على مر العصور جديدة فضة لا تبلى مع الزمن ثم انها اكتسحت ما لقيت من لغات، اذ اتخذتها شعوب لامداد لها لسانها ، فاصبح هو اللسان الادبي واللسان العلمي من اواسط آسيا الى المحيط الاطلسي . فكل من عاشوا في هذا الاتحاد تكلموا العربية القرشية اذ حلت محل لغتهم الاولى واصبحوا عربا يمشون بالعربية الفصحى عن مشاعرهم ومقولاتهم ، ومواقفهم ، ومعارفهم بفضل القرآن . فهو الذى حفظ العربية من الضياع ونشرها في الارض وجعلها لغة حية خالدة .

وثاني آثاره انه حول العربية الى لغة ذات دين سماوي وبذلك اصل فيها معاني لم تكن تعرفها من قبله ولا كانت تعرف العبارة عنها .

ويقف عادة مؤرخو الادب عند الفاظ ابتداء مثل الفرقان ، والكفر ، والايمان ، والاشراك ، والاسلام ، والنفاق ، والصوم ، والزكاة ، والقيم ، والركوع ، والسجود ، والتشهد ، والتسليم ، والتكبير ، والاذان ، والقنوت ، والتهجد ، والطلاق ، والفاخرة وغير ذلك من كلمات الدين الاسلامي . ولكن من الحق ان المسألة لم تكن مسألة الفاظ انما كانت مسألة دين جديد له مضمونه الذى لم يكن العرب يعرفونه .

وبمر الزمان تكونت حوله علوم ، ولا مبالغة اذا قيل ان كل ما كسبه العرب من علوم ومعارف ، انما كان بفضل ما غرس فيهم القرآن من حب للعلم كما تقدم ، ومن هذه العلوم المختلفة علم التفسير ، وعلم اسباب النزول ، وعلم احكام القرآن وعلم نحوه وامرابه وعلم خاصه وعامه ، مما هيأ علوم البلاغة .

ومن العلوم المهمة المتفرعة عنه علم الفقه واصوله . ولا نبأ ان قلنا ان العلوم الاسلامية كلها قامت لخدمة القرآن وتعاليمه فهو الذى هيأ بقوة نهضة العرب والاسلام العلمية .

وثالث آثاره كما ذكر العلامة الدكتور شوقي ضيف في تاريخه عن الادب العربي (ان القرآن هذب اللغة العربية من العوضى ، ومن اللفظ الغريب . فاقامها بهذا الاسلوب البالغ الروعة الذى ليس له سابقة ، ولا لاحقة في العربية ، هو الذى اقام عمود الادب العربي منذ ظهوره فعلى هديه اخذ الكتاب

والربو ، والوافدة ، والامزجة ، والشلل ، والمثلث ، والمربع ، والدائرة ، والكون ، والحوادث ، والوجود ، والعرى ، والازل ، والابد ، والبداية ، والنهاية ، والمطلق ، وما الى ذلك من آلاف وآلاف المفردات التى تستخدم في مختلف العلوم والفنون . وبجانب هذه الالفاظ العربية الاصل ، اقتبس العرب لنفسه الاغراض الفاظا اعجمية من لغات كثيرة وخاصة من الفارسية ، واليونانية ، والسريانية بعد ان عربوها وصقلوها بمناهج اللسان العربي . ومن ذلك الفاظ البند ، والديوان ، والمسكر ، والصهرج ، والقيروان (اي القافلة) والطنبور ، والبابونج ، والزرنج ، والمالغوليا ، والاصطرلاب ، والطلمس ، والمظنطيس ، والقانون ، والاسطول ، والبارجة ، والفلسفة ، والهيولى وهلم جرا .

وقد جرت عادتهم في الغالب ان يبحثوا للمعنى الجديد عن لفظ عربي من طريق الاشتقاق - الذى هو من اهم خصائص اللغة العربية - او من طريق المجاز ، واذا اميتهم الحيلة عمدوا الى تعريب اسمه الاجنبي . وكثيرا ما يلجأون الى هذه الوسيلة الاخيرة من بادى الامر ، اذا كان اللفظ يدل على معنى اصطلاحى دقيق يخشون ضياعه في ثنابا اللفظ العربي .

— ما كان من آثار القرآن في الادب العربي :

واول آثار القرآن الكريم انه جمع العرب على لغة قريش ولهجتها الفصحى . وحقا كانت هذه اللهجة تسود القبائل في الشمال زمن الجاهلية . غير ان هذه السيادة لم تكن تامة فقد كان الشمره هم الذين يستخدمونها غالباً .

اما قبائلهم فكانت تلوذ لهجات تختلف عن اللهجة القرشية قليلا ، وكثيرا ، حسب قربها من مكة او بعدها ، فعمل القرآن على تقريب ما بين هذه اللهجات من فروق واستكمال السيادة للهجة القرشية ، اذ كان العرب يتلون آياته وسوره آساء الليل واطراف النهار ثم اخذت هذه اللهجة تعم بين القبائل البدوية متغلغلة في الانحاء الداخلية التى كانت لا تزال تتكلم الحميرية ولما فتحت الفتوح ، ومصرت الامصار ، اخذت لهجته تسود في مشارق الارض الاسلامية ومغارها ، اذ كانت تلاوته فرسا مكتوبا على كل مسلم ومسلمة . وحث الاسلام على حفظه وتلاوته .

والخطباء والشعراء يصوغون آثارهم الأدبية .
مهتمين بديباجته الكريمة وحسن مخارج الحروف
فيه ، ودقة الكلمات في مواضعها من العبارات بحيث
تحيط بمعناها ، وحيث تجلى عن مفراها مع الرصانة ،
والجزالة ، والحلاوة .

وكان العرب ولا يزالون يتحفظون له . فهو
معجمهم اللغوي والأدبي الذي ساروا على هداية مهمما
اختلفت أقطارهم أو تباعدت أمصارهم ، وأصاغرهم .

ويأتي الحديث الشريف بعد ذلك من حيث
التأثير على نشر اللغة العربية وتهذيبها ، لانه فصل
أركان أصول الدين ، وأحكامه التي أنت مجملة دون
تفصيل . وهو عماد السنة ، والرسول أوتي جوامع
الكلم ، ولم يتكلم بكلام كما يقول الجاحظ « إلا وقد
حف بالعصمة ، وشيد بالتأييد ، وسر بالتوفيق . »
وكان له الأثر البالغ في توسيع المادة اللغوية ، بما
أشاع من الفاظ دينية وفقهية . وأحاديث الرسول
المسندة ذات الفاظ عربية سليمة ، وكثر ثمين لها .
وقد استمد المتأدبون من هذا الكنز في رسائلهم
وأشعارهم ما أضاف إليها على مر العصور رونقا
وحلاوة .

— خصائص اللغة العربية ومميزاتها التي
ساعدت على نموها ، ونمو العلم ، والأدب :

تمتاز اللغة العربية من سائر أخواتها اللغات
السامية ، ومن سائر لغات البشر بوفرة كلماتها
حتى قال السيوطي في « المزهري » أن المستعمل
والمهجور منها يبلغ عدده (12.313.780) والزبيدي
يقول في « تاج المروس » أن الصحيح يبلغ
(6.620.000) والمعتل يبلغ (6.000) كلمة وذكر
أيضا أن كتابه حوى (120.000) كلمة .

وعدا من وفرة المفردات فإنها ذات أطراد في
القياس في أبنيتها ، ومن هذا ومن تنوع أساليبها ،
وعذوبة منطقتها ، ووضوح مخارجها ، ووجود الاشتقاق
في كلماتها يقول الأستاذ الفاضل محمد عطية
الأبراشي في كتابه الآداب السامية . وقد صانت
هذه الخصائص اللغة العربية زمن جاهليتها قرونا
سحيقة ، وهي في جزيرة العرب ودفعت تقدمها في
النظرية التي نشأت عليها آمنة شر الامتزاج
بالمفاهيم ، أو لهجة المغيرين حتى ظن كثير من العلماء
أنها وليدة المواضع واصطلاح متعدد من حكماء

أهلها لأنها لغة فطرية وفطرية تدريجية ، من أقدم
اللغات السامية ، وهي أصلها على رأي كثير من علماء
عصرنا الشرقيين ، والغربيين . ثم يقول هذا ولا
يمكننا أن ننسى أن الأعراب والإيجاز ، والسجع ،
وكثرة المترادفات ، ودقة التعبير ، تضاف إلى
خصائص هذه اللغة التي هي من أقدم اللغات الحية .
فليس في العالم اليوم لغة محكية أقدم منها . ولا
تزال تحتفظ بالأعراب تماما كاملا شأن جميع اللغات
القديمة .

أما اللغات المذكورة فعلى رأي الأستاذ الجليل
عمر فروخ فقد فقدت الأعراب في اللغة الدانماركية ،
واللغة الروسية ، وهناك للأعراب في اللغات الباقية .

ويبدو أن اللغة العربية ، انفصلت عن أخواتها
الشمالية من اللغة السامية الأم منذ زمن بعيد جدا ،
ثم عادت فانفصلت من المجموعة الشمالية أيضا منذ
زمن بعيد .

ونحن إذا دققنا في اللغات السامية وجدنا اللغة
العربية أتمها صيفا وأكملها صرفا ونحوا ، وأرقاها
بيانا وبلاغة ، وأحسنها أسلوبا ، فمن أجل ذلك لا
يستبعد أن تكون هذه هي اللغة السامية الأم
والفصحى ، وأن البابلية ، والكنعانية ، والآرامية
والحبشية لهجات لها ، ومع كثرة الصلات التي كانت
بين عرب الشمال والجنوب منذ أقدم الأزمنة فإن لغة
حمير ابتعدت كثيرا عن اللغة المضربة (العربية
الشمالية التي نزل بها القرآن حتى قال أبو عمر
ابن الملا منذ صدر الدولة العباسية (ما لسان حمير
وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا) .

وكان جميع العرب الذين يسكنون النصف
الشمالي من الجزيرة في البحرين واليمامة ونجد
والحجاز سواء أكانوا ينتسبون إلى مضر أو اليمن ،
يتكلمون لغة واحدة ، وينظمون أشعارهم منها .

ولقد رأينا شعراء الجاهلية من أي المواطنين
كانوا ينظمون قصائدهم بلغة واحدة في كل شيء ،
ثم يحملون تلك القصائد لينشدوها في أسواق العرب
أو في جميع البلاد العربية في العراق والشام ، وحتى
في اليمن نفسها مما يدل على أن لغة مضر كانت في
الجاهلية اللغة العامة للعرب .

وبالرغم من هذا لم يمنع أن يكون للمعرب
لهجات محلية ماثورة في قبيلة أو قبيلة . على أن
معنى اللهجة هنا ، إنما هو استعمال الفاظ مختلفة

د - ومن ذلك ايضا نظام جمع التكسير الذي لا تشاركها فيه الا اختاها الجنوبيتان اليمنية القديمة ، والعربية . فقد توسعت هي توسعا كبيرا حتى اصبح للمفرد الواحد عدة جموع من هذا النوع ، (كنهز وانهر ، ونهور ، وانهار . وبحر وبحار ، وبحور وابحر) .

هـ - ومن مميزاتها النحوية تلك القواعد الدقيقة التي اشتهرت باسم قواعد الازراب والنسب تتمثل في اصوات جد قصيرة تلحق اواخر الكلمات ، لتدل على وظيفة الكلمة في العبارة وعلاقتها بما عداها من عناصر الجملة ، وهذا النظام لا يوجد له نظير في اخت من اخواتها السامية ، اللهم الا بعض آثار ضئيلة في العبرية والآرامية ، والعربية .

و - ومن خواص اللغة العربية ومميزاتها ، انها اوسع ثروة في اصول الكلمات والمفردات ، من اخواتها اللغات السامية ، هذا الى انه قد تجمع فيها من المفردات في مختلف انواع الكلمة اسمها ، وفعلها ، وحرفها . ومن المترادفات في الاسماء والانفال ، والصفات ، ما لم يجتمع مثله في لغة اخرى . فلقد جمع للاسد خمسمائة اسم ، وللشعبان مائتا اسم ، وللعلل اكثر من ثمانين اسما . ويروي الفيروزبادي صاحب القاموس ان للسيف في العربية الف اسم على الاقل ويقدر آخرون ان للدهابة اربعمائة اسم ، ولكل من المطر والريح والظلام والناقة والحجر ، والماء ، والبشر اسماء كثيرة تبلغ عشرين في بعضها ، الى ثلاثمائة في بعضها الآخر . وقد جمع الاستاذ (درهام) المفردات العربية المتصلة بالجمل وشؤونه فوصلت الى اكثر من خمسة آلاف وستمائة واربعة واربعين وكذلك الشأن في الاوصاف فلكل من الكريم والبخل ، والشجعان والحيان ... في اللغة العربية عشرات الالفاظ وقد احسن بيانها ابن سيد في كتابه « المخصص » ، كما احسن ابن جني في كتابه « الخصائص » ، وكما افاد كثيرا الثعالبي (في كتابه فقه اللغة) وكان صاحب تهذيب اللغة ابو منصور محمد بن احمد الازهري المولود سنة 282 والمتوفى سنة 370 ممن خدم اللغة واجاد في بيان خصائصها ومعاني مفرداتها ويوجد كثير من علماء اللغة ممن اتوا في قواميسهم وكتبهم ما يدل على فضلهم وبحرهم ، وعلى ما للغة العربية من خواص ومفردات تعد بمئات الالوف كما تقدم ذكره .

للمعنى الواحد في بعض الاحيان ، والمجسي بصيغ متباينة لتلك الالفاظ احيانا . اما التركيب ، واما النحو والمنطق اللغوي ، فكانت كلها واحدة .

ويقول الاستاذ علي عبد الواحد الوافي (ومن اهم خصائص اللغة العربية عاملان لم يتوافرا لغيرها من اللغات السامية . احدهما انها نشأت في اقدم موطن الساميين . وثانيهما ان الموقع الجغرافي لهذا الوطن قد ساعد على بقائها حينما من الدهر متمتعة باستقلالها وعزلتها .

وكان من اثر هذين العاملين ان احتفظت باكثر قدر ممكن من مقومات اللسان السامي الاول ، وبقي فيها من تراث هذا اللسان ما تجردت منه اخواتها السامية فتميزت عنها بغواص كثيرة منها ومن اهمها الامور الآتية :

١ - انها اكثر اخواتها احتفاظا بالاصوات السامية ، فقد اشتملت على جميع الاصوات التي لاخواتها ، وزادت عليها باصوات كثيرة لا وجود لها في واحدة منها وهي (التاء ، الدال ، الظاء ، العين ، الصاد) .

ب - انها اوسع اخواتها ثروة في اصول الكلمات والمفردات فهي تشتمل على الاصول التي تشتمل عليها اخواتها السامية ، ومعظمها ، وتزيد عليها باصول احتفظت بها من اللسان السامي الاول . ولا يوجد لها نظير في اية اخت من اخواتها هذا الى انه قد تجمع فيها من المفردات في مختلف انواع الكلمة اسمها وفعلها وحرفها ما لم يجتمع مثله للغة سامية .

ج - وتمتاز اللغة العربية عن غيرها بان الاصل الواحد يتوارد عليه مئات من المعاني بدون ان يقتضي ذلك اكثر من تغييرات في حركات اصواته الاصلية نفسها مع زيادة بعض اصوات عليها ، او بدون زيادة ، وان كان ذلك يجري وفق قواعد مضبوطة دقيقة نادرة الشذوذ مثلا (علم ، علمنا ، اعلم ، يعلم ، تعلم ، اعلم ، اعلمي ، علم ، نعلم ، تعلم ، تعاليم ، علم ، يعلم ، علم ، علامة ، علم ، علوم ، اعلام ، علامات ، عليم ، علامة ، علماء ، عالمون ، متعلم ، معلم ، معلم ، معلم ، معلوم ، عالم ، عالمون ، عالم ، عوالم) ... الخ . هذا ولم تعلم أي لغة سامية اخرى في هذه الناحية والى هذا الشاؤ .

- اللهجات العربية وسبب حدوثها وماذا
تتناول :

اما اللهجات العربية فالبحت عنها ولا شك هام .
ويحتاج الى دراسة خاصة لانها يجب ان تتناول
اللهجات القديمة والحديثة . وهي متعددة كل منها
بحسب القبائل ، والاقاليم ، والاماكن ، والطبقات
من المجتمع العربي وبحسب البيئة والثقافة . فلمصر
لهجتها ، وللمراق لهجته ، وللمغرب لهجته ، ولبلاد
الشام لهجتها وكذا اليمن ، والحجاز ، والكويت ،
ونجد ايضا لبلاد شمالي افريقيا لهجاتها . وذلك
لاختلاف الاقوام والقبائل التي تسكنها واختلاف
حياتهم ومعيشتهم وحضارتهم .

وهو امر طبيعي يتبع قانون التحول ، والتطور ،
والانتخاب ، والحاجة ، والتنازع ، والتربية ،
واختلاف اللهجات قد يتناول الاصوات ، وقد يتناول
بنية الالفاظ وامرارها ، وقد تكون الالفاظ اصيلة او
دخيلة ، منحوتة او معربة ، معرفة او مشوكة ، وقد
يكون معناها مختلفا عن غيرها .

وقد يكون الدخيل الاجمعي او المنحوت ، او
المشتق قليلا او كثيرا تبعا لتقدم المجتمع وتأخره في
العلم ، والمدنية ، وتبعا لكون اصحاب اللهجة المختلفة
من الحكام او المحكومين او من المستعمرين او من
المستقلين ، وتختلف لهجات المدن عن الارياف ، وفي
القطر الواحد قد تمتد اللهجات بين النساء والرجال
وبين اقسام المدن ومجتمعاتها واحيانا ، وبين اقسام
المتعلمين ، والاميين بحيث يصعب على ابن هذا القطر
الواحد ان يفهم الكلام الدارج من ابن القطر الثاني كما
تختلف لهجة رجال العلم ولغة ارباب المهن والحرف
والصنائع والاعمال من رجال الفن ، والادب
والحكومة وارباب الحكم والادارة ورجال الحرب
والامن .

- ما هو المرجع للغة العربية وتوحيد لهجاتها
والبامث لحفظ الفصحى وسلامتها ؟

مهما يكن واقع الحال في تعدد اللهجات في
الماضي والحاضر فلا مرجع لتقويمها وازالة منحرفها
وتوحيدها وحفظ الفصحى وتعميمها ونشرها
واستكمال سلامتها الا بنشر العلم وتقوية الثقافة
الخاصة والعامة ، وانتشار التعليم والقضاء على
الامية ثم انشاء المعاهد العلمية والجامعات والمجامع
العلمية واللغوية وانشاء الكليات والمدارس الثانوية
والابتدائية وتعميم الجمعيات العلمية والادبية
والفنية والمكتبات والاكتار من المطابع والاكتار من
تأليف الكتب في كل علم وفن وبحث ، وان تكون
الفصحى لغة التدريس والتأليف والنشر خاصة لغة
الصحف والتمثيل ، والاذاعة ، والاعلان والخطابة
فيجب ان تكون هي اللغة الفصحى ، واللغة الفصحى
مع كل هذه المقومات اللغوية والثقافية مرجعها الاول
وحافظها الاقوى والامم هو القرآن والحديث ولا
يزيل ضعفها ويوحد لهجاتها ويقوم معوجها الا الادب
العربي السليم في الشعر والنثر والكتابة ، والفناء ،
والتمثيل ، والاذاعة ، والاعلان ، وما يشمل الادب
العربي من تاريخ ومحفوزات ومخطوطات ومطبوعات .
والامية كلما زالت ، او تقاربت كتب التعليم ومناهج
التعليم في جميع درجاته في البلاد العربية وتوحدت ،
وعمت الوحدة المجامع اللغوية والعلمية ، وتطورت
وساعدتها الحكومات وامدتها المؤسسات الاهلية بما
يلزمها من المساعدات المادية والمعنوية لتفاهم العرب
واسرعوها بتقدمهم ورقيمهم وتشبيد حضارتهم بالقوة
التي كانت لابائهم في فجر انطلاقتهم الاولى وفي
عصورهم الذهبية والمولى يؤيد من ينصره وهو على
كل شيء قدير .